تفسير ابن كثير

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم واعتدائهم على خلقه قال العوفي عن ابن عباس : لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم فقال تعالى { كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون } أي كان لا ينهى أحد منهم أحدا عن ارتكاب المآثم والمحارم ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوه فقال : { لبئس ما كانوا يفعلون } وقال الإمام أحمد C : حدثنا يزيد حدثنا شريك بن عبد ا عن علي بن بذيمة عن أبي عبيدة عن عبد ا قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم [لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا : فجالسوهم في مجالسهم] قال يزيد : وأحسبه قال : [وأسواقهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب ا قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم { ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون } وكان رسول ا صلى ا عليه وسلّم متكئا فجلس فقال] لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا [.

وقال أبو داود : حدثنا عبد ا بن محمد النفيلي حدثنا يونس بن راشد عن علي بن بذيمة عن أبي عبيدة عن عبد ا بن مسعود قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم] إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق ا ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب ا قلوب بعضهم ببعض ـ ثم قال : { لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم } إلى قوله { فاسقون } ـ ثم قال : كلا وا لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا أو تقصرنه على الحق قصرا [وكذا رواه الترمذي وابن ماجه من طريق علي بن بذيمة به وقال الترمذي : حسن غريب ثم رواه هو وابن ماجه عن بندار عن ابن مهدي عن سفيان عن علي بن بذيمة عن أبي عبيدة مرسلا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وهارون بن إسحاق الهمداني قالا : حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن العلاء بن المسيب عن عبد ا بن عمرو بن مرة عن سالم الأفطس عن ابن أبي عبيدة عن عبد ا بن مسعود قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم] إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيرا فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه [وفي حديث هارون] وشريبه [ثم اتفقا في المتن] فلما رأى ا ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان نبيهم داود

وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون [ثم قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم] والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسيء ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن ا قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كما لعنهم [والسياق لأبي سعيد كذا قال في رواية هذا الحديث وقد رواه أبو داود أيضا عن خلف بن هشام عن أبي شهاب الخياط عن العلاء بن المسيب عن عمرو بن مرة عن سالم وهو ابن عجلان الأفطس عن أبي عبيدة بن عبد ا بن مسعود عن أبيه عن النبي صلى ا عليه وسلّم بنحوه ثم قال أبو داود : كذا رواه خالد عن العلاء عن عمرو بن مرة به ورواه المحاربي عن العلاء بن المسيب عن عبد ا بن عمرو بن مرة عن سالم الأفطس عن أبي عبيدة عن عبد ا قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : وقد رواه خالد بن عبد ا الواسطي عن العلاء بن المسيب عن عمرو بن مرة عن أبي موسى .

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدا ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام قد تقدم حديث جابر عند قوله { لولا ينهاهم الربانيون والأحبار } وسيأتي عند قوله { يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم } حديث أبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخشني فقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان الهاشمي أنبأنا إسماعيل بن جعفر أخبرني عمرو بن أبي عمرو عن عبد ا بن عبد الرحمن الأشهلي عن حذيفة بن اليمان أن النبي صلى ا عليه وسلّم قال] والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن ا أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم [ورواه الترمذي عن علي بن حجر عن إسماعيل بن جعفر به وقال : هذا حديث حسن وقال أبو عبد ا محمد بن يزيد بن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن عمرو بن عثمان عن عاصم بن عمر بن عثمان عن عروة عن عائشة قالت : سمعت رسول ا صلى ا عليه وسلّم يقول] مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم [تفرد به وعاصم هذا مجهول .

وفي الصحيح من طريق الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبي سعيد وعن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم] من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان [رواه مسلم وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير حدثنا سيف هو ابن أبي سليمان سمعت عدي بن عدي الكندي يحدث عن مجاهد قال : حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يعني عدي بن عميرة Bه يقول : سمعت النبي صلى ا عليه وسلّم يقول] إن ا لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عذب ا الخاصة والعامة [ثم رواه أحمد عن أحمد بن الحجاج عن عبد ا بن المبارك عن سيف بن أبي سليمان عن عيسى بن عدي الكندي حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول : سمعت رسول ا صلى ا عليه

وسلّم يقول فذكره هكذا رواه الإمام أحمد من هذين الوجهين .

قال أبو داود : حدثنا أبو العلاء حدثنا أبو بكر حدثنا المغيرة بن زياد الموصلي عن عدي بن عدي عن العرس يعني ابن عميرة عن النبي صلى ا عليه وسلّم قال] إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها ـ وقال مرة فأنكرها ـ كان كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها [تفرد به أبو داود ثم رواه عن أحمد بن يونس عن ابن شهاب عن مغيرة بن زياد عن عدي بن عدي مرسلا وقال أبو داود : حدثنا سليمان بن حرب وحفص بن عمر قالا : حدثنا شعبة وهذا لفظه عن عمرو بن مرة عن أبي البحتري قال : أخبرني من سمع النبي صلى ا عليه وسلّم وقال سليمان حدثني رجل من أصحاب النبي صلى ا عليه وسلّم أن النبي A قال] لن يهلك الناس حتى يعذروا أو يعذروا من أنفسهم [وقال ابن ماجه : حدثنا عمران بن موسى حدثنا حماد بن زيد حدثنا علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري أن رسول ا A قام خطيبا فكان فيما قال] ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه [قال : فبكى أبو سعيد وقال : قد وا رأينا أشياء فهبنا .

وفي حديث إسرائيل عن عطية عن أبي سعيد قال : قال رسول ا A] أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر [ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي : حسن غريب من هذا الوجه وقال ابن ماجه : حدثنا راشد بن سعيد الرملي حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا حماد بن سلمة عن أبي غالب عن أبي أمامة : قال : عرض لرسول ا A رجل عند الجمرة الأولى فقال : يا رسول ا أي الجهاد أفضل ؟ فسكت عنه فلما رمى الجمرة الثانية سأله فسكت عنه فلما رمى جمرة العقبة ووضع رجله في الغرز ليركب قال] أين السائل ؟ [قال : أنا يا رسول ا قال] كلمة حق تقال عند ذي سلطان جائر [تفرد به وقال ابن ماجه : حدثنا أبو كريب حدثنا عبد ا بن نمير وأبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البحتري عن أبي سعيد قال : قال رسول ا A :] لا يحقر أحدكم نفسه [قالوا يا رسول ا : كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال] يرى أمر ا فيه مقال ثم لا يقول فيه فيقول ا له يوم القيامة : ما منعك أن تقول في كذا وكذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس فيقول : فإياي كنت أحق أن تخشى [تفرد به وقال أيضا : حدثنا علي بن محمد حدثنا محمد بن فضيل حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عبد ا بن عبدالرحمن أبو طوالة حدثنا نهار العبدي أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول : سمعت رسول ا A يقول : إن ا يسأل العبد يوم القيامة حتى يقول : ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقن ا عبدا حجته قال : يا رب رجوتك وفرقت الناس] تفرد به أيضا ابن ماجه وإسناده لا بأس به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عمرو بن عاصم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن عن جندب عن حذيفة عن النبي A قال [لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه] قيل : وكيف يذل نفسه ؟

قال [يتعرض من البلاء لما لا يطيق] وكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعا عن محمد بن بشار عن عمرو بن عاصم به وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب وقال ابن ماجه : حدثنا العباس بن الوليد الدمشقي حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي حدثنا الهيثم بن حميد حدثنا أبو معبد حفص بن غيلان الرعيني عن مكحول عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول ا متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال [إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم] قلنا يا رسول ا وما ظهر في الأمم قبلنا ؟ قال [الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالكم] قال زيد : تفسير معنى قول النبي A والعلم في رذالكم إذا كان العلم في الفساق تفرد به ابن ماجة وسيأتي في حديث أبي ثعلبة عند قوله { لا يضركم من ضل إذا اهتديتم } شاهد لهذا إن شاء ا تعالى وبه الثقة .

وقوله تعالى : { ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا } قال مجاهد : يعني بذلك المنافقين وقوله { لبئس ما قدمت لهم أنفسهم } يعني بذلك موالاتهم للكافرين وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقا في قلوبهم وأسخطت ا عليهم سخطا مستمرا إلى يوم معادهم ولهذا قال { أن سخط ا عليهم } وفسر بذلك ما ذمهم به ثم أخبر عنهم أنهم { وفي العذاب هم خالدون } يعني يوم القيامة قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا مسلم بن علي عن الأعمش بإسناد ذكره قال [يا معشر المسلمين إياكم والزنا فإن فيه ست خصال : ثلاثا في الدنيا وثلاثا في الاخرة فأما التي في الدنيا فإنه يذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما التي في الآخرة فإنه يوجب سخط الرب وسوء الحساب والخلود في النار] ثم تلا رسول ا A { لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط ا عليهم وفي العذاب هم خالدون } هكذا ذكره ابن أبي حاتم .

وقد رواه ابن مردويه من طريق هشام بن عمار عن مسلمة عن الأعمش عن شقيق عن حذيفة عن النبي A فذكره وساقه أيضا من طريق سعيد بن غفير عن مسلمة عن أبي عبد الرحمن الكوفي عن الأعمش عن شقيق عن حذيفة عن النبي A فذكر مثله وهذا حديث ضعيف على كل حال وا أعلم .

وقوله تعالى : { ولو كانوا يؤمنون با والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء } أي لو آمنوا حق الإيمان با والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن ومعاداة المؤمنين با والنبي وما أنزل إليه { ولكن كثيرا منهم فاسقون } أي خارجون عن طاعة ا ورسوله مخالفون لآيات وحيه وتنزيله